المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دائرة الشؤون الثقافية والنشر -
الجمهورية العراقية
المجلد الثاني عشر - العدد الثاني - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

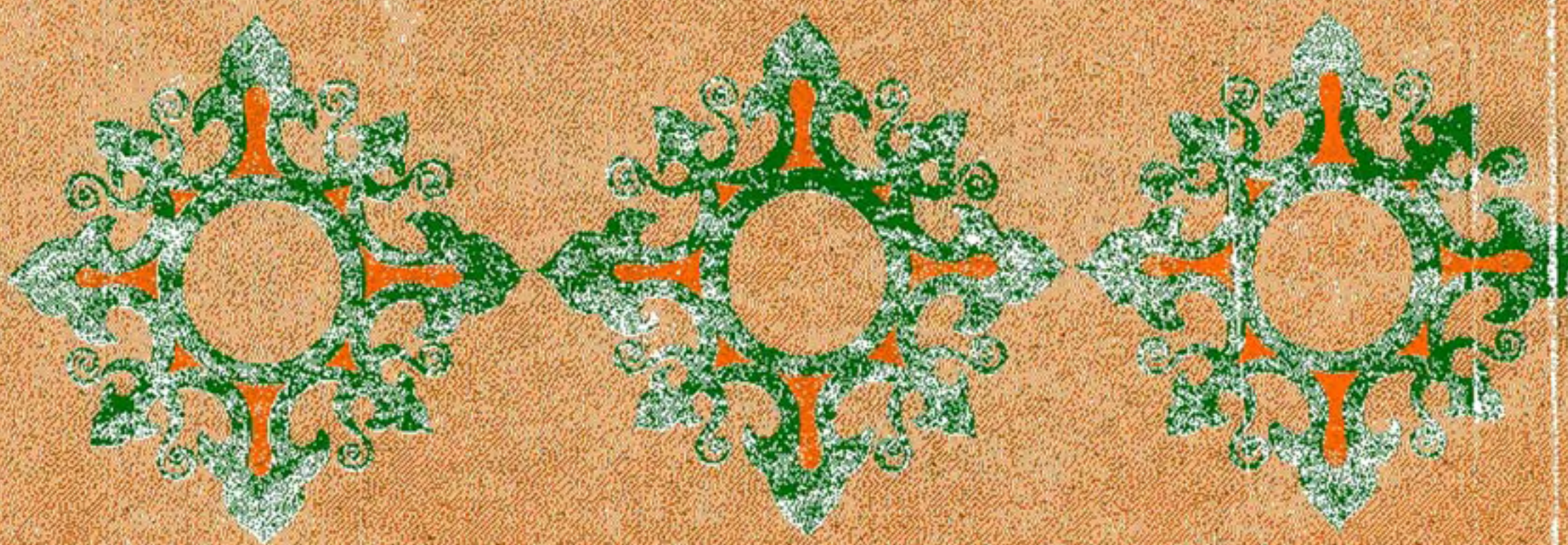

أسد الدين محمد

التقرعن علي بن رضوان

بقلم الدكتور.

سلمان قطاية

باريس ـ فرنسا

سيرته

يقول لوسيان لوكاسير(١) في كتابه « تاريخ الطب العربي » نعتقد ان عليا عاش حوالي ثمانين سنة . وظل فترة طويلة ، وخدم الحاكم الذي توفي عام ١٠٢١م ؛ وفي سيرته الذاتية التي سبقت عام ١٠٥٥م كان عمره ستين عاما . واخيرا فانه عاش ايضا حتى عام ١٠٦١ ؛ حسب ابن ابي اصيبعة .

ويقول الدكتور سامي حمارنه(٢) : « ... وقد داب منذ ان بلغ الثانية والثلاثين حتى صار عمره ستين سنة في عام ٤٥٩هـ (مما يدل على انه ولد حوالي سنة ٣٩٩هـ) على كتابة مفكرة سنوية » .

فاذا عدنا الى ابن ابي اصيبعة في كتابه عيون الانباء(٣) وجدنا ما يلي : « ... ولم ازل كذلك وانا في غاية الاجتهاد في التعليم الى السنة الثانية والثلاثين فاني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت اكسبه بالطب بل وكان يفضل عني الى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ... وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين الى يومي هذا اعمل تذكرة لي واغيرها في كل سنة الى ان قررتها على هذا التقرير الذي استقبل به السنة الستين من ذلك .. »

ولا نجد ذكرا لاي تاريخ ماعدا تاريخ الوفاة ٤٥٣هـ ـ ١٠٦١م ، اما ماكس مايرهوف فيقول(٤) ولد عام ٣٨٨هـ \ ٩٩٨م ... توفي حوالي ٤٥٣هـ \ ١٠٦١م معنى ذلك انه عاش ثلاث وستين سنة .

ثم يعود مايرهوف فيؤكد ان كتاب « في التطرق بالطب الى السعادة » وكتاب « مقالة في سبيل السعادة وهي السيرة التي اختارها لنفسه » و « رسالة السعادة » والمقطع الموجود في كتاب ابن ابي اصيبعة كلها واحدة . وهو راي معقول جدا ، خاصة اذا ما قارنا بين ما في كتاب ابن ابي اصيبعة ومخطوط كتاب « في التطرق بالطب الى السعادة »(٥) ؛ نجد تشابها كبيرا ، ثم نجد المقطع التالي « وجدنا تاريخ الاسكندر الى وقتنا هذا وهو سنة ست وثلاثين واربع مائة للهجرة ؛ الف وثلثماية واثني وستين سنة تامة ... »

فاذا اعتبرنا عام ٤٣٦هـ \ ١٠٤٤م(٦) الرقم

---

(١) L. LECI7RC : Histoire de la Médecine Arabe. VE Bust-Franklin, N.Y. 1876 Tome I. P : 525.

(٢) فهرست المكتبة الظاهرية ـ ص : ١٨٦

(٣) ج ١ ص : ٥٦١

(٤) M. MEYERHOF & SCHACHT : The Medico - philosophical controversy between Ibn-Butlan of Baghdad & Ibn

(٥) مايرهوف ـ خمس رسائل لابن بطلان ـ ص : ٦٤ حاشية رقم ٥٢

(٦) يقول سارتون انه ولد عام ٩٩٨م وتوفي عام ١٠٦١م او ١٠٦٧ ، المدخل ج ١ ص : ٧١٩ .

WWW.ATTAWEEL.COM

الذي بلغ فيه ابن رضوان سن الستين استطعنا القول انه ولد عام ٩٨٦م فاذا توفي عام ٤٥٣هـ(٧) ١٠٦١م معنى ذلك انه عاش خمس وسبعون عاما .

بينما يؤكد القفطي(٨) انه توفي عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م معنى ذلك انه عاش واحد وثمانين عاما .

وهو ابو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر ، ولد في الجزيرة ، ونشأ بمدينة مصر ؛ وكان ابوه فرانا . وذكر في سيرته الذاتية ان دلالات النجوم كانت تدل على ان صناعته هي الطب فبدأ بالتعلم وهو في السادسة من عمره ، وعندما بلغ العاشرة انتقل الى القاهرة واجهد نفسه في العلم ، ولما بلغ الرابعة عشرة بدأ يتعلم الطب والفلسفة ووجد صعوبة مشقة في سبيل ذلك بسبب ضيق ذات اليد ، فكان مرة يتكسب بصناعة التنجيم ومرة اخرى بالطب ، ولم يزل على هذه الحال والمنوال حتى بلغ الثانية والثلاثين من العمر فاشتهر كطبيب وبدأ دخله من عمله هذا يكفيه بل يزيد حتى اشترى املاكا . وصار له ذكر وسمعة عظيمة بلغت الحاكم بأمر الله(٩) فصيره رئيسا لاطباء مصر بعد وفاة اسحق بن ابراهيم بن سليمان . ولكننا اذا قارنا التواريخ وجدنا انه خدم المستنصر بالله وليس الحاكم كما يقول ابن ابي اصيبعة ويردده معظم المؤرخين(١٠) .

وكان ابن رضوان(١٠) اسود اللون ولم يكن بالجميل الصورة وكان ابن بطلان اكثر مايقع في علي بن رضوان من هذا القبيل واشباهه ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها دعوة الاطباء :

فلما تبدى للقوابل وجهه
تكشن على اعقابهن من الندم
وقلن واخفين الكلام تستترا
الا ليتنا كنا تركناه في الرحم

وفي الرسائل المتبادلة بين ابن رضوان وابن بطلان نجد الاول يدافع عن نفسه عندما يعيره الاخر بقبحه فيقول(١١) : ان من عاب المصنوع فقد عاب الصانع وخزيا للمستهزئين بمخلوقات الله « . ثم يذكر ان سقراط « عيرته امراته بقبح الخلقة فقال: « اما الى تحسينه فقد اجتهدت فيه وهو العلم ، واما الى الطبيعة عمله ، فعاره عليها » .

وكان ابن رضوان عصاميا اتكل على نفسه وجهده ، وعلم نفسه بنفسه واستطاع ان يصل الى مقام عظيم رغم اصله المتواضع وكان ذلك حتما بفضل جهده واجتهاده ، وطموحه وعلو همته . وكانت له دار في مقر الشمع تهدمت .

وكان من عاداته ان يكتب تذكرة بغيرها كل عام . ومن عاداته اليومية ايضا ان يقوم بقسط من الرياضة لحفظ صحة البدن ثم ياكل ما يغذي البدن بعد الرياضة .

وكان يقوم بعمله قاصدا التلذذ بالافعال الجميلة واسداء الخدمات للناس ، لقاء مبلغ يكفيه حاجة . فينفق ماله دون تبذير ولا تقتير بل يلزم الاعتدال حسبما يتطلبه التعقل في كل حين . وما يزيد من ماله يصرفه في وجوه الجميل والنافع كاعطاء الاهل والاخوان والجيران وعمارة المنازل . واذا زاد مال ادخره لعمارة المنازل وترميمها ، ولوقت الحاجة .

وكان يلبس ما يرتديه الاخيار من الناس ، حريصا على النظافة وطيب الرائحة . ويجتهد في ان يلزم الصمت ويكف اللسان عن معايب الناس .

ويقتضي فراغ الوقت في عبادة الله وذلك بالتفكير في ملكوت السموات والأرض وتمجيد محكمها . واسترجاع ما فعله من اعمال ونقدها لكيلا يقع في الاخطاء ان وقع فيها على ان يعد نفسه بان لا يعود اليها .

ويذكر ابن ابي اصيبعة عن ابي عبدالله محمد المالقي ان ابن رضوان اصيب بلوثة في عقله في آخر ايامه سببها انه اتخذ يتيمة رباها في داره فاستغفلته ذات يوم وهربت وهربت بعد ان نهبت معظم ماله (منها عشرين الف دينار) ولم يستطع القبض عليها .

---

(٧) ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٥ ـ ج ٥ ص : ٦٩ .

(٨) القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص : ٤٤٤

(٩) و(١٠) ابن ابي اصيبعة ـ عيون الانباء ـ ص : ٣٢٦ ،

(١١) انظر :
Dr. S.H. NASR
Isma'ili Contributors to
Islamic Culture - Teheran - 1977 - (Dr. S. Hamarneh - Medicine & Pharmacy under the Fatimids P.P. : 141 - 185.

وهذه الصورة التي يقدمها لنا ابن ابي اصيبعة(١٢) في كتابه تختلف عن الصورة التي يقدمها جلال الدين القفطي في كتابه اخبار الحكماء(١٣) ، بينما تنطبق تماما على الصورة التي يقدمها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول(١٤) ، اذ يقول : « ... لم قرا شيئا من الطب وشيئا من المنطق وكان من المقلقين لا المحققين ؛ ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة ومع هذا فتلمذ له جماعة من الطلبة فاخذوا عنه وسار ذكره وصنف كتبا لم تكن في غاية بابها ل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة ... فاما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه التعاليل الطبية والاقاويل النجومية والالفاظ المنطقية مما يضحك منه ان صدق النقلة ... »

ولقد اشار ابن بطلان الى جهل تلاميذ ابن رضوان في اول رسالة كتبها الى علي وهي بداية المناظرة بينهما .

الان ابن ابي اصيبعة ، وهو الاكثر موضوعية واعتدالا في الراي ، واهم مؤرخ لاطباء العرب ، يذكر من تلاميذه افرائيم بن الزفان(١٥) اليهودي الذي كان « من الاطباء المشهورين بديار مصر ، وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم وحصل من جهتهم من الاموال والنعم شيئا كثيرا جدا ... وكان له همة عالية في تحصيل الكتب ... »

ولكن هذه الاوصاف لا تنطبق مع الواقع والحقيقة فان من يقرا كتب ابن رضوان وخاصة كتابه « في دفع المضار عن ارض مصر » يجد فيه رجل علم ودراية ومنطق .

فاذا علمنا ان مناظرة شديدة وقعت بين ابن رضوان وابن بطلان وان القفطي او بالاحرى الزوزني الذي اختصر كتاب القفطي الذي لم يصف لنا بكل اسف كرس لابن بطلان في صدر كتابه صفحات عديدة بينما لم يكرس لابن رضوان سوى صفحة واحدة هي الاخيرة من كتابه ؛ وان القفطي مصري اضطر لترك بلاده . كل هذا يجعلنا نشك في حكمه على ابن رضوان ولا يبدو ان القفطي قرا شيئا من كتبه خاصة اذا ما قارنا كلامه مع ما كتبه ابن ابي اصيبعة الذي قرا حتما الكثير من كتبه لانه لا يني عن سرد مقتطفات من تلك الكتب في مناسبات شتى(١٦) . وجاء حكمه على ابن رضوان اكثر موضوعية واتزانا من حكم القفطي . وعلى اعتبار ان ابن رضوان كان يحب المناقشات والمجادلات والرد على معاصريه وعلى القدماء وربما هذا ما اثار حقد القفطي او ربما وقعت بينهما اشياء لم تصل الينا او لم تكتشف بعد .

وكان شتاين شنايدر قد نشر دراسة عن حياة ابن رضوان اخذها من الترجمة اللاتينية لكتابة المربعة لبطليموس ومقالة في الولادات الثلاث(١٧) .

وفيها سيرة ذاتية له . ولا توجد هاتان المخطوطات بالعربية بل بترجمتها اللاتينية مع شرح ابن رضوان لكتاب بطليموس وهما مطبوعتان في البندقية (عام ١٤٩٣ ـ ١٥١٣م) وفيهما معلومات اضافية عن حياته نوردها هنا(١٨) .

« لم يعش والده اكثر من ٣١ سنة بينما عاشت امه ٤٣ سنة ، وكان له اخ واخت ، كلاهما اكبر منه . وعندما كتب ابن رضوان ملاحظاته هذه كان قد بلغ ٥٢ سنة ، نقطة خطر في حياته . اذ قال عن نفسه انه ذو بنية رئيوية ومزاج بلغمي وطبع هادىء وعاقل ، وذكاء جيد ، وعادات جيدة مع الامتناع عن المشروبات . ويستمر النص اللاتيني فيقول : » وكانت بداية ثروتي ، بعد ان كرست نفسي للطب ، اذ اخذني بعض اصدقائي الى دكانته واصبحت بديلا له ، ولقد استفدت من ذلك كثيرا من اجل الطب .. وكان مكتبي طب وتنجيم ، وفي شبابي كان لي اعمال اخرى اربح منها ، وبعد ذلك بدأ وضعي يتحسن عندما بدات دراسة الطب » .

ويضيف شتاين شنايدر انه ربما كان له بضعة زوجات « بعضهن من الحرائر وبعضهن من الجواري » ولكنه تركهن . وكان محبا للنساء ؛ ولكنه كان عفيفا ، وكان له صبي توفي بعد ولادته

---

(١٢) ابن ابي اصيبعة ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ دار الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ص : ٥٦٣

(١٣) جمال الدين القفطي ـ تاريخ الحكماء ـ لا يبزيغ ـ ١٩٠٢، ص : ٤٤٣

(١٤) غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ـ ١٩٥٨ ص : ١٩٢ .

(١٥) ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء ـ ص : ٥٦٧ ـ ٥٦٨

(١٦) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ، الصفحات ٢٠ ـ ٤٤ ـ ١٥٤ ـ

(١٧) مايرهوف ـ خمس رسائل لابن بطلان ، ص : ٥٠

(١٨) ماكس مايرهوف ـ خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ـ ص : ٥٠

بقليل ،وثلاث بنات ؛ عاشت احداهن سبع سنوات فقط ، والاخرى سنة واحدة ويقول : « ولم اتزوج حتى الثلاثين .. ورزقت صبيا واحدا وعدة بنات، ولكنهم ماتوا جميعا » .

وتبنى بنتا يتيمه خلال الوباء الذي اصاب مصر ما بين ٤٤٥هـ \ ١٠٥٣م و ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وهي التي بعد فترة من الزمن هربت مع ما جمعه من مال .

الا ان ابن ابي اصيبعة يبدو وكانه يضع علي ابن رضوان في المكان الاول فقد روى عن جمال الدين يحيى بن مطروح ؛ حين كان وزير الملك الصالح نجم الدين ايوب قال لي وهو يزوره بدمشق : « ما سبقك الى تاليف مثل كتابك في طبقات الاطباء احد » . ثم قال : « وذكرت اصحابنا المصريين ؟ فقلت له نعم فقال : « وكاني بك قد اشرت الى ان ما في الاطباء المتقدمين منهم مثل ابن رضوان ؛ وفي المتاخرين مثل ابن جميع ، فقلت له صحيح يا مولانا » .

ولكننا لابد ان نعترف بان ابن رضوان بما كان يعاني من بعض الآثار النفسية التي نجمت عن كونه عانى صعاباكثيرة اثناء صغره وحتى وصل الى الشهرة ولانه كان قبيح الخلقة اسود اللون بالاضافة الى انه كان من اصل متواضع شعبي بسيط . والتناقض الحاصل بين هذه الامور وكونه رئيسا لاطباء مصر وطبيبا ناجحا وشهيرا ؛ جعلت الحساد يهاجمونه ويكيدون له ، وهو على ما رايناه ، شديد البأس قوي الارادة فكان لا يسكت عن هجوم ، خاصة اذا كان الهجوم من تلك الثغرات .

وعلى كل حال فان ذلك ، في راينا ، لا ينقص من قيمته التاريخية ومكانته العلمية .

وهو ان لم يكن من الاطباء العرب الأوائل في الرتبة والدرجة امثال ابن سينا والرازي وابن النفيس فانه لاشك ، ياتي بعدهم مباشرة ، بالنسبة لمؤلفاته واعماله ونشاطه . ويؤكد ابن تغري بردي قيمته فيقول « كان اماما في الطب والحكمة ، كثير الرد على ارباب فنه ، وكان فيه سعة خلق عند بحثه وله مصنفات كثيرة »(١٩)

ولكي ندرك اهمية ابن رضوان وقيمته فلا بد من مقارنته بأبناء مهنته في عصره امثال : اسحق بن ابراهيم بن نسطاس ، وموسى بن العازار الاسرائيلي ؛ وابو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر ؛ والحقير والنافع .

اما الاول ابن نسطاس فلا يذكر عنه ابن ابي اصيبعة(٢٠) الاسطرين يقول فيهما انه خدم الحاكم بامر الله وانه كان يعتمد عليه في الطب ، ولما مات خلفه علي بن رضوان فاصبح رئيسا لاطباء مصر .

والثاني بن العازار : خدم المعز لدين الله مع ابنه اسحق ثم ابنه اسماعيل وابنه يعقوب . ولموسى بضعة كتب اشهرها : كتاب المغرى في الطبيخ ؟ .

اما ابو الفتح : فقد خدم الحاكم قبل ابن نسطاس وجاء هذا بعده ثم جاء ابن رضوان . وصفه ابن ابي اصيبعة(٢١) بانه كان له « دراسة وخبرة في صناعة الطب » .

اما الحقير النافع فهو « جرايجي » مصري يهودي وكان في غاية الخمول «(٢٢) فلما اصيب الحاكم بعقر في رجله لم يستطع احد برءه ، فاحضر له ذلك اليهودي فبراه واسماه « الحقير النافع ».

وهكذا نجد ان معظم هؤلاء الاطباء كانوا من الممارسين وبعضهم ممارس جيد لا اكثر ولا اقل ولم يصل احد منهم الى مرتبة العالم . التي وصل اليها ابن رضوان كما تشهد به بذلك مؤلفاته التي يتوف عددها المئة تناولت معظم مواضيع الطب والصيدلة وغيرها .

نقده لابي بكر الرازي

كان علي بن رضوان يحب المناقشة والرد على من يحاول التطاول عليه حتى قال عنه ابن ابي اصيبعة(٢٣) « كان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الاطباء وغيرهم ؛ وكذلك على كثير ممن تقدمه »

والواقع انه انتقد من الاوائل :

ابا بكر الرازي

وحنين بن اسحق

وابا الفرج الطيب

بينما اشتبك في مناقشة مع ابي الحسن بن

(١٩) ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة ـ ج ٥ ص : ٦٩ .

(٢٠) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ـ ص : ٥٤٤

(٢١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ص ٥٤٩ .

(٢٢) القفطي ، اخبار الحكماء ، ص : ١٧٨ .

(٢٣) ص ٥٦٣

بطلان البغدادي(٢٤) وتبادلا عدة رسائل نشرتها الجامعة المصرية مع تحقيق لماكس مايرهوف .

وابن الجزار واهل مصر ـ نقده لابي بكر الرازي ـ

اما بالنسبة للرازي فيبدو انه لم يعثر ويقرأ سوى كتابه « الحاوي » والواقع ان الكتاب هذا يبدو مضطربا متعثرا لا صياغة فيه ولا تسلسل .

ولقد انتقده الكثيرون غير ابن رضوان امثال علي بن العباس المجوسي(٢٥)الا « ... والذي بقع لي من امره واتوهمه ما يوجبه القياس من عمله وفهمه في هذا الكتاب (الحاوي) احدى حالين اما ان يكون وضعه وذكر فيه ماذكر من جميع علم الطب ليكون تذكره له خاصة يرجع اليه فيما يحتاج اليه من حفظ الصحة ... او خوفا من آفة تعرض لكتبه فيعتاض عنها بهذا الكتاب ، ولذلك لم يكترث بجودة التاليف وحسن النظام » .

بينما يقول لوسيان لوكلير(٢٦) : « لا يتمتع الحاوي بالتنظيم البارع الموجود في كتاب القانون لابن سينا ... ولم يسمح له الوقت بان يعطي لهذا المرجع الضخم شكلا علميا فعلا ، وحذف التكرار والتطويل » .

ويضيف الدكتور البيرزكي(٢٧) قوله « ومن الخطأ ان نحكم على مستوى الرازي كطبيب او مستوى الرازي كمؤلف بدراسة كتاب الحاوي في الطب ، فهذه مكتبة الطبيبة ، لا نظام فيها ولا ترتيب سوى انه كان يكتب في الامراض التي تصيب الراس اولا، ثم في تلك التي تصيب الصدر، فالبطن وهكذا الى القدم » .

لا عجب اذن ان يرى ابن رضوان في الرازي سوى طبيبا من « اصحاب الحيل » .

ويبدو ان اعادة اختصار الكتب الاصيلة ، والاعتماد على الكنانيش والجوامع والتفاسير قد انتشر لسهولة قراءتها وفهمها ، الشيء الذي ادى الى سوء فهم كتب جالينوس وابقراط ... فتردى من جراء ذلك المستوى الطبي .

لذا نرى ان ابن رضوان يصر ويشدد على ضرورة العودة الى الاصول كما ذكرنا ويهاجم التدريس عن الكنانيش ومن ينصح بها ... امثال الرازي .

يقول ابن رضوان(٢٨) « حتى ان ابا بكر الرازي يأمر كل طبيب ان يضع كناشا لنفسه ، فكثرت لذلك كتب الطب وصار كل واحد يتناول كناشا لنفسه فكثرت لذلك كتب الطب ونصف منه الناس فلمحت بذلك محاسن صنعة الطب واضطربت فضائلها لان امر الناس مبني على حب اللذه والراحة فاستراحو بالكنانيش والجوامع وتركوا التعلم فنسي طريق تعلم ابقراط وتعاليم جالينوس » واملحه يشير الى قوم الرازي(٢٩) « فاكثر جمع كتب الطب جهدك ثم اعمل كتابا تذكر فيه كل علة ، ماقصر الكتاب الآخر واغفله من كل نوع من العلل وحفظ الصحة الرتبة من تعريف او سبب او تقسيم او علامة او علاج او استعداد او انذار او احتراس فيكون ذلك كنزا عظيما ، وخزانة عامرة » .

ولا شك ان المبالغة في الامر والاستهتار بكتابة اي كناش كان وانحطاط المستوى العلمي بين الطلاب دعى ابن رضوان الى حملته على الرازي من الناحية التعليمية هذه .

ولكنه يعود فيدرج كتاب الحاوي من بين الكتب الهامة التي يجب على الطبيب ان تكون في مكتبته الى جانب كتب « ... ابقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكتب رفس ، واريباسيوس ، وبولس وكتاب الحاوي للرازي(٣٠) ... » الشيء الذي يدعونا الى التفكير بانه كان يحترم الرازي ويقدره ولكنه كان يختلف معه في بعض الامور وخاصة حينما كان الرازي ينتقد آراء جالينوس ويختلف معه * هنا نجد ابن رضوان مخلصا اخلاصا شديدا لاراء جالينوس .

وهكذا نحينما يقدم الرازي اراء تساليوس Thessalus على آراء جالينوس نجد ان ابن رضوان يهاجم الرازي بعنف لان مدرسة تيساليوس كانت تعتقد ان آراء ابقراط مبالغ فيها وانه بالامكان دراسة الطب خلال ستة اشهر ، وان في

---

(٢٤) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري ـ مايرهوف ـ القاهرة

(٢٥) كامل الصناعة الطبية ـ مخطوط الظاهرية رقم ٧٠٥٥ (طب) ص ٤ من المقدمة .

(٢٦) الطب العربي ـ ج ١ ص ٢٥٤

(٢٧) الفصول ، للرازي ، تحقيق د . اسكندر ـ المقدمة .

(٢٨) من مخطوط النافع في كيفية تعلم صناعة الطب

(٢٩) الرازي المرشد فصل ٣٧٧ ص ١٢٤ و ١٢٥

(٣٠) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٦٢ .

كتب ابقراط « تطويل فيما لاحاجة بالصناعة اليه » لذلك هاجم جالينوس .

والذي نعلمه ان تيسالوس(٣١) كان يدعو الى تدريس الطب الى جانب سرير المريض ولقد هاجمه جالينوس بعنف لشعوذته ؛ وخاصة لآرائه التي كانت تناقض آراء ابقراط ومدرسة اصحاب القياس Dogmatists وكان تيسالوس يولي التدريب العملي السريري الاهمية الاولى ويدعي انه بامكانه تعليم الطب لأي شخص كان خلال ستة اشهر .

لذلك يقول ابن رضوان « انه كذب في قوله ليس يوجد في زماننا من يستعمل راي تاسلس لان اكثر اهل زماننا يستعملون راي تاسلس وهم لا يشعرون واولهم الرازي نفسه ، فانه وضع كنانيش وكتبا كثيرة استعمل فيها راي تاسلس وذلك انه يضع مرضا مرضا ويذكر لها ادوية لا قياس معها ولا مقرونا بها » .

وهنا يفرق ابن رضوان بين راي اصحاب القياس (وهو منهم) واصحاب الحيل Methodist الذي يدعي ان الرازي منهم فيقوم «وذلك ان القياس هو ان يستنبط من هذا المرض الحاضر الساعة مداوة ادوية خاصة به في هذه الساعة لا ان يعرض له ادوية واحدة باعيانها (أ) دائما » .

والجدير بالذكر ان اصحاب الحيل او الحيلة هم المشعوذون فقد ورد في كتاب ابن ابي اصيبعة مايلي « وقال جالينوس في كتابه (في الأمراض العسرة البرء) : انه كان مارا بمدينة رومية اذ هو برجل حلق حوله جماعة ، من السفهاء ، وهو يقول : انا رجل من اهل حلب لقيت جالينوس ، وعلمني علومه اجمع ، وهذا دواء ينفع من الدود في الاضراس . وكان الخبيث قد اعد بندقا من قار وقطران وكان يضعها على الجمر ويبخر بها صاحب الاضراس المدودة بزعمه فلا يجد بدا من غلق عينيه ، فاذا اغلقها دس في فمه دودا قد اعدها في حق ، ثم يخرجها من فم صاحب الضرس . فلما فعل ذلك القى اليه السفهاء بما معهم . ثم تجاوز ذلك حتى قطع العروق على غير مفاصل . قال فلما رايت ابرزت وجهي للناس وقلت : انا جالينوس . وهذا سفيه . ثم حذرت منه . واستعديت عليه السلطان فلطمه . ولذلك الف كتابا في اصحاب الحيل » .

(٣١) ص ١٢٣

الا انني لا اظن ان ابن رضوان اراد فعلا ان يضع الرازي في هذا الموضع . ولكنه خالفه في الحاح الرازي على الدراسة السريرية الى جانب المريض ، وربما في وصف ادوية لكل مرض بشكل مطلق دون التزام دواء خاص بحسب كل طور من المدار تطور المرض .

وكلها احكام مأخوذة ؛ على ما اظن ؛ من قراءة سريعة للحاوي . وعلى كل حال فان لنا ثلاثة مآخذ على ابن رضوان :

١ ـ تمسكه بالاشياء السطحية لنقد الرازي

٢ ـ نعته الرازي بأوصاف تهجم واستعمال الفاظ غير مستحبة كقوله : « فدل بجهله بمعاني القسمة وعبارته في حدها مع طولها عبارة ثقيلة على السمع ليس لها بهجة ولا فصاحة ودل ايضا على انه لا يفهم طريق القدماء » « ولكنك اتيت بكلام به كلام الرجل بتسلط وسوء عبارة ورذالة ... » و « وهذا يدل ايضا على انه ما فهم مذهب الرجل » و « هو حمار لا يفهم » ..

٣ ـ بينما نجد ان ابن رضوان ينتقد الآخرين نقدا لاذعا نراه لا يتقبل ان ينتقد احدهم ابقراط وخاصة جالينوس ؛ وهو في دفاعه عن الاخير يدل على علم عميق وغزير في طب جالينوس، ولكنه في الوقت نفسه يدل على تعصب اعمى وايمان مطلق بالطب اليوناني ايمان يجاوز التأليه . ولكن لا عجب فقد اعتاد المؤرخون العرب في ايامه وقبله (وحتى بعده بفترة) اعتبار ما كتبه الفاضلان وحي من الله ، وانهما كانا بمثابة الانبياء .

ونجد في مخطوطة « النافع في كيفية تعليم صناعة الطب » نفسها نقصا عندما يصل ابن رضوان في تاريخه لتعليم الطب الى عمر بن عبدالعزيز فلا نجد في نهاية الصفحة سوى «أيام عمر بن» وتحتها « عبد » وينتقل المؤلف فجأة الى نقد حنين بن اسحق وبعد ثلاثة صفحات نفهم ان يتناول بالنقد « كتاب المدخل » فهو اذن : « تفسير كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس ـ المدخل ـ(٣٢) » وهو الكتاب الذي ذاعت شهرته في العصور الوسطى باوربا والذي الفه حنين بن اسحق .

وكان قد ذكره ابن رضوان في الباب الاول من الكتاب فيقول « التمسنا في مدينة مصر من راينا ان المتعلمين يقصدونه في التعليم وغير المتعلمين

(٣٢) ماكس مايرهوف ـ المشر مقالات في العين لحنين بن اسحق ـ القاهرة ١٩٧٢ ـ ص ١٤

يحمدونه في الصناعة فقصدناه وسألناه التعليم فاجابنا الى ذلك ثم امرنا ان نحفظ مدخل حنين ».

ويفسر الدكتور البير زكي اسكندر(٢٢) ان الكتاب المقصود هو : المسائل في الطب للمتعلمين « او » المسائل في الطب « او » المدخل الى صناعة الطب « او » المدخل في الطب .

بينما يشير عبيد ويونج(٢٤) « الى ان اولمان قد اشار الى التفريق بين الكتابين لكن فؤاد سيزكين خلط بين الاثنين » والذي يبدو لي ان اولمان وعبيد ويونج هم المخطؤون .

ولقد رد امية بن عبدالعزيز ابي الصلت(٢٥) (ت ٥٢٩هـ/١١٣٦م) على نقد ابن رضوان لحنين، يكتب « الانتصار لحنين بن اسحق على علي بن رضوان في تتبعه لمسائل حنين » .

رده على ابن الجزار

وكان ابن الجزار(٢٦) طبيبا من اهل القيروان وينتسب الى عائلة من الاطباء واتصف بالذكاء والفهم والجد والنشاط والنزاهة . وكان يقضي الصيف في المنستير على البحر الابيض المتوسط . وكان على باب داره سقيفة فيها غلام يدعى رشيق، كان يعد له المعجونات والأشربة والادوية .

عاش نيفا وثمانين سنة ومات عتيا بالقيروان ووجد له اربعة وعشرون الف دينار وخمسة وعشرون قنطاراً من الكتب الطبية وغيرها . وترك كتبا كثيرة من تاليفه اشهرها: كتاب في علاج الامراض ويعرف بزاد المسافر ويقع في مجلدين ...

ومنها : « كتاب في نعت الاسباب المولدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك العلاج ما يتخوف منه »

وهو الكتاب الذي دفع بعلي بن رضوان الى تاليف « في دفع مضار الابدان بارض مصر » وفيه يرد الكثير من افكار الجزار .

فيقول في البداية « ... وقد كان احمد بن ابراهيم الطبيب المغربي المعروف بابن الجزار وضع في ذلك مقالة مفردة لم يستقص فيها ما نحتاج اليه من تلخيص القول واستيفاء الوصف في ذكر الاسباب البلدية وما يحدث عنها وما يدفع به ضررها وخليق ان تكون عرض له النقصان من قبل انه رجل من اهل المغرب لم يعاين مصر معاينة اختبار وامتحان ولكن سمع بها سماعا فذكر ما سمع به فقط بحسب ما تضمنه كلامه وكتابنا هذا يزيد على كتابه بمقدار فضل قوتنا على قوته في انواع (؟) ومقدار اختبارنا ارض مصر بالمشاهدة دون الخبر سنينا كثيرة متوالية . ومن الانصاف وآثر العدل فسيقف على صدق هذا القول اذا جمع بين الكتابين فتاملهما من غير ميل مع الهوى الذي من شانه ان يعمي عن النفس اعني العقل ويطفيء نورها واذا كان كتابنا بهذا الحال فحاجة الخاص والعام من ساكني مصر وما يليها ومن يصير اليها من الغرباء اليه ضرورية في صحة ابدانهم وازالة اسقامها واشدهم اليه اضرار الاطباء اذ كان لا يوقف على ما يحتاج اليه في المداواة دون الوقوف على مزاج البلد وما تحدث فيه خاصا » .

والواقع ان كون ابن رضوان قد ولد ونشا وعاش في مصر وزاول المهنة طويلا فيها ؛ ورأى وعاش الاوبئة التي اصابتها خلال حياته الطويلة ؛ كل هذا يجعله أجدر من الجزار في تاليف كتاب في هذا الموضوع .

ولكن فضل السبق يعود الى ابن الجزار في طرق الموضوع كما يعود اليه الفضل ايضا في دفع ابن رضوان الى تاليف كتابه النفيس المليء بالمعلومات الدقيقة عن العادات والامراض والاوبئة في مصر في تلك الحقبة من الزمن . والواقع ان اسلوب الكتاب يتميز بالتسلسل وحسن التبويب وبالدقة والموضوعية .

ويكرس الفصل الخامس كله لمناقشة ونقد افكار ابن الجزار وعنوان الفصل « في ان اكثر ما اعطاه ابن الجزار في الباب الاول من كتابه ان العلة في مرض الذين وفدوا من المغرب الى مصر هو كثرة اختلاف هوا مصر ، ونعم ما قال لان ابدانهم لا تالف هذا الهواء » ويؤكد ان ما اصاب هذا الوفد من المغاربة لا يصيب المصريين لانهم اعتادوا اختلاف الهواء . ثم يتعرض لما ادرجه ابن الجزار في الباب الثاني من كتابه من ان هواء مصر يكون يابسا في

---

(٢٣) المصدر المذكور ، ص ٢٤٠ ، ملاحظة ٥٢

(٢٤) Hunayn Ibn Ishaq - Brill - 1475 P. : 264.

(٢٥) انظر : ابن ابي اصيبعة ـ ج ٢ ص ٥٢ ـ ٦٢
Brokman Vol. I P. 486 No. 14,

(٢٦) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ، ص ٤٨١ ـ انظر : ابن جلجل ص ٨٨ ـ ٨٩ و
G. Sarton - Introduction P: 682.
Brockelmann, Vol : I. P : 274-5 et Suppl. I. P. 424.

الخريف ،ويقول ابن رضوان انه على العكس يرطب كثيرا في ذلك الفصل . واعتمد ابن الجازر في ذلك على قول ابقراط واستنتج ان اكثر امراض اهل مصر خريفية ، لكن ابن رضوان يجد هـذا القول غلط لأن « هواء ارض مصر ليس خريفيا انما يتغير في اليوم الواحد الى البرد والحر فقط بل الى اليبس اكثر اوقاته رطب حتى ان الندا (الندى) يوجد كثيرا في غدوات ايام الصيف » وينكر كلام ابن الجزار من اكثر امراض المصريين هي امراض المرة السوداء ويقول بانها اقل امراضهم .

ويقدم العذر لابن الجزار في احكامه لانه لم يشاهد مصر انما ذكر له وفد المغاربة ما حدث بها من الامراض . فاستنتج ان العلة كامنة في اختلاف الهواء والوباء الناجم عنه .

ثم يناقش ببراعة وعلم الطقس مع الاخلاط وما ينجم عنها من امراض واوبئة .

الى يقول « ثم قال ابن الجزار في الباب الخامس في كتابه ان العلة في الوباء بمصر هو الضباب الكائن في الهواء وهذا القول ايضا ليس بصحيح » لأن الضباب في ارض مصر يعوض عن قلة الامطار ، وينتقد فهم ابن الجزار لقول ابقراط بان « قلة المطر اصح من كثرته واقل موتا : لان هذا ينطبق على بلاد المطر فيها جيدا اما مصر فلا مطر فيها لذا فان قلة المطر لا معنى له وان ابقراط اكد ان حدوث الاوبئة والامراض يكون فيما اذا لم تلتزم الاوقات والفصول صفاتها من حيث الحرارة والرطوبة ، فاذا التزم كل فصل بما هو معهود فيه قلت الامراض . الى ان يقول « فليت شعري ، من اين لابن الجزار ان يكون اختلاف هواء مصر والضباب الكائن بها سببا لوقوع الوباء فيها وهما لم يخرجا عن العادة » . « ... ثم قال بعد ذلك ان ماء النيل مضر بكل من سكن مصر ضررا محسوسا وليت شعري كيف يكون ذلك للنيل وهو السبب الاعظم في سكنا هذه الارض . وابدانهم قد الفته فهواءها غير مضر » لذا « فاقاويل ابن الجزار تخالف اقوال الاوائل ويلزمها هذا المحال » ثم يؤكد « ان النيل ليس يحدث في الابدان في كل سنة مرضا ولكنه ان افرطت زيادته او قصر عن العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض وهذا امر ذهب عن ابن الجزار حتى اغفله وهو عمدة ما يحتاج اليه في هذا الفن » .

ومناقشته هذه تدل على طول باع ابن رضوان في تفهم الطب حسب نظريات ومفاهيم ابقراط وجالينوس ، كما تدل ايضا على دقة ومراقبته لاحوال بلاده وساكنيها ، والروح المنطقية العلمية التي كان يتمتع بها .

نقده لاهل مصر

في الفصل الثالث من كتاب « في دفع مضار الابدان » فقرة تسترعي الانتباه لانه يوجه نقدا شديدا مرا لاهل مصر فيقول « فاما اخلاق المصريين فبعضها شبيه ببعض لان قوى النفس تابع لمزاج البدن وابدانهم سخيفة ،(٣٧) سريعة التغير ، قليلة الصبر والجلد ، وكذلك اخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء الى شيء والدعة ، والجبن ، والفنوط ، والشك ، وقلة الصبر ، والرغبة في العلم ، وسرعة الجزع ، والحسد ، والنميمة ، والكذب ، والسعي الى السلطان وذم الناس .

وبالجملة : الشرور الدنية ، التي تكون من دناءة النفس وليست هذه الشرور عامة فيهم ، ولكنها موجودة في اكثرهم . ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق ، وبراه من الشرور ، ومن اجل توليد ارض مصر الجبن ، والشرور الدنية في النفس لم يسكنها الاسد . واذا دخلتها ذلت ولم تتناسل ، وكلابها ايضا ، اقل حدة من كلاب غيرها من البلدان وكذلك سائر ما فيها هو اضعف من نظره في البلدان الاخرى ، ما خلا ما كان منها في طبعه يتلائم لهذه الحال كالحمار والارنب » .

واذا استثنينا بعض عبارات المديح القليلة وجدنا الصورة التي رسمها لاهل مصر غير جميلة قطعا . وكأنما هو تاكيد تماما مما يقول حتى راح يحاول جاهدا تفسير هذه الامور بقضايا علمية . فربطها بالمناخ وجغرافية البلاد .

الا ان في قوله جور كبير وظلم واضح ، ان معظم هذه العيوب موجودة في اكثر شعوب الارض في ذلك الزمان عندما كان الحكم في يد رجل واحد مستبد ، تحيط به ثلة من العسكريين البطاشين .

ومحاولة تفسيرها بطبيعة البلاد امر عسير التفهم . ولقد قامت بعض المبادىء التي تحاول تفسير تباين جسد الانسان ولون بشرته من منطقة الى اخرى بحسب الظروف المناخية : فلون الافريقي اسود او كاتم بسبب تعرضه الطويل للشمس الحارة الحادة ، فتكثر الاصبغة في الجلد

---

(٣٧) رقيقة ، ضعيفة .

وهي اصبغة قاتمة من طبيعتها امتصاص الاشعة الضارة ، فتحمي الجسم من الاشعة تحت الحمراء .

كذلك حاول البعض تفسير طباع الشعوب بحسب المناخ : فسكان الجبال اكثر عنادا وتصلبا من سكان السهول ...

الا ان لهذه « الملاحظات » حدودا لا يمكن ان تتخطاها كما حاول بعض المفكرين وعلماء الاعراق ، وذلك بهدف وضع نظرية تتلاقى وتتعانق في نهاية مطافها مع النظرية العرقية التي تقسم البشر الى صنف ممتاز مبدع خلاق : هو العرق الابيض . وصنف على العكس ويضم كافة الشعوب « الملونة » .

وكلما تقدمت الانسانية كلما تبين ان هذه الفروق هي فروق « فولكلورية » لا اكثر ولا اقل ، وان كل الشعوب عرفت في تاريخها فترات ازدهار ومجد وانها اذا ما صممت على النضال للتحرر والتقدم وصلت الى ما تصبو اليه . ولكن تفسيرات اخرى اكثر علمية وموضوعية .

فاذا كانت اجسام المصريين ضعيفة رقيقة وهزيلة فالسبب : قلة الغذاء ، وانتشار الاوبئة والامراض ، مع الجهل وعدم الوعي الصحي ، وسببها كلها : الفقر ، واستغلال الغني للفقير استغلالا لا انسانيا .

واذا كان اكثرهم يغلب عليه « الجبن ، والقنوط ، والشك ، وقلة الصبر ، والكذب ، والسعي الى السلطان وذم الناس » فالسبب الوحيد والواضح هو الحكم الديكتاتوري الفردي القاسي الساحق وخلال آلاف السنين منذ ايام الفراعنة الاولى .

هذا النظام هو الذي سحق انسانية الانسان واحالة الى تلك الصورة من الذل والمسكنة والنفاق والرياء والنميمة . اما الحسد فهو ناجم ولا شك عن الظلم الاجتماعي فبينما تنعم فئة قليلة بالحياة الرغيدة ، تعيش الفئات الكثيرة في بؤس رهيب قاتل اشتهرت به مصر منذ قديم الزمان .

فانتقال الخوف والرهبة مع الجهل والمرض والبؤس ، من جيل الى جيل وخلال مئات آلاف السنين جعل الانسان السوي ذلك الانسان الذي يصفه ابن رضوان .

اما حديثه عن الحمار والأرنب فلا شك انه استرسال القلم وترادف العبارات ، وتسلسل الافكار . والا فالتفسير العلمي هو ان طبيعة البلاد ونوع الغذاء لا يسمح للأسد بالعيش في تلك البلاد. ولا علاقة لطبع الاسد مع نوع التربة المصرية .

وربما كان السبب ما كتبه ابن رضوان هو حبه الشديد لاهل بلده ووطنه ، والالم الشديد الذي اعتمل نفسه لدى رؤيته لهم يخضعون للذل الذي فرضه عليهم الاجانب من الجنود الاتراك والديلم والاقليات الاخرى التي اجتاحت البلاد . وما رآه من اهوال وويلات خلال الاوبئة والطواعين التي اجتاحت البلاد وسكوت اهل مصر على كل ذلك وتحملهم له . كل هذا سبب في نفسه مرارة ونقمة وثورة لم يستطع لها تفسيرا سوى ما كتبه .

ولعل ابن رضوان ادرك ذلك اذ نقرأ في نهاية المخطوط قوله: « بعد ان اتممت هذا الكتاب سمعه مني بعض اهل البلدان البعيدة فاخذ يطبق على مصر واهلها وظني اني ذممتهم حيث وصفت اخلاقهم . فقلت : ليس الامر كما ظننت وذلك ان شرور المصريين دنية خسيسة فعلاجها سهل وعاقبة امرها على الاكثر محمودة ، وليس يوقع اهلها في المهالك العظام ، والحروب الطويلة ، والبلاء والقتل وعلاجها صعب عسر . واذا كان الغالب على الناس الشرور ما خلا الشاذ منهم فالشرور الدنية التي تقبل العلاج بسرعة وسهولة احمد وافضل من الشرور الخبيثة التي يعسر حلها لا سيما وعاقبتها آمن . فأهل مصر اذن افضل اخلاقا واجود طريقة ورسما هذا هاهنا لملحق ما تقدم » .

خلافه مع ابن بطلان

سبب الخلاف ، هو في الواقع ، جانبي لا قيمة حقيقية له . فلقد جاء عن كبار الاطباء العرب على ان لحم الفرخ (وهو صغير الحمام) اكثر حرارة من لحم الفروج (وهو صغير الدجاج) .

فيقول الرازي(٢٨) : «لحوم الفراخ : فلحومها حارة ملتهبة ولشحومها حرارة ظاهرة بينة ولذلك لا توافق المحرورين ... لحم الدجاج ... هو لحم معتدم ملائم للبدن المعتدل الذي لا يكد كدا شديدا وهو يحسن اللون ويزيد في المني والدماغ ... »

ويقول ابن البيطار(٢٩) ملخصا آراء من قبله :

---

(٢٨) الرازي ـ في منافع الاغذية ودفع مضارها ـ دار صادر ـ بيروت ص : ٢٣

(٢٩) ابن البيطار ـ الجامع لمفردات الادوية والاغذية ـ ج ٢ ص ١٦٢

« فراخ الحمام : ابن ماسويه : فيها حرارة ورطوبة فضلية ... وينبغي ان يأكلها المحرور بماء الحصرم والكزبرة ولب الخيار . ابن ماسه : الفراخ اجر من جميع اللحوم الطير المألوفة مع عسر انهضامه وكثرة توليد الدم ورطوبته ... ان سينا : لحوم الفراخ تهيج الخوانيق الامصوصا . المنهاج : تنفع في الفالج اكلا ولحمها كثير الفضول سريع العفونة » .

الا ان احد الاطباء وهو ابو الفرج جورجس بن يوحنا بن سهل بن ابراهيم اليبرودي (من نصارى اليعاقبة) الف مقالة في ان الفراخ ابرد من الفروج .

وقد قدم له ابن ابي اصيبعة(٤٠) ترجمة قال في بدايتها انه : « كان فاضلا في صناعة الطب عالما بأصولها وفروعها معدودا من جملة الاكابر من اهلها والمتميزين من اربابها ..

وكان مولد اليبرودي ومنشؤه في صدر عمره يبرود وهي ضيعة كبيرة قرب صيدنايا وبها نصارى كثير ... » وتتلمذ على يدي ابي الفرج بن الطيب كاتب الجاثليق ببغداد استاذ ابن بطلان .

ثم يسرد ابن ابي اصيبعة قصصا عن اليبرودي تبدو لنا الان مشكوكا في امرها من الناحية العلمية ومبالغا فيها حتى انها اقرب الى الاسطورة والخيال منها الى الواقع . ويذكر انه « كان لليبرودي مراسلات الى ابن رضوان بمصر والى غيره من الاطباء المصريين وله مسائل عدة اليهم طبية » .

اما مقالته عن الفرخ والفروج فلم تصلنا ؛ ولكننا نظن بأن معظم افكارها او كلها واردة ضمن رسائل ابن بطلان اثناء مناقشته مع ابن رضوان .

ويذكر ابن بطلان كيف بدأت المناقشة اذ يقول في رسالته الاولى « الباب الاول في سبب تصنيف هذه المقالة ـ حكى بعض الاطباء في دار الوزارة بالقاهرة المعزية عن اليبرودي الطبيب انه عابا اطباء مصريين بمسألة الزمهم بها ان يكون الفروج احر من الفرخ لسرعة نهضته والفرخ ابرد ليطء حركته ، فقلت له هذا سؤال مشهور ، وجوابه مسطور » .

ويبدو ان . احد الاطباء « هذا كان من تلاميذ ابن رضوان ، بالاضافة الى قول ابن بطلان ان زميله في الدين والدراسة اليبرودي » اعيا اطباء المصريين « وابن رضوان رئيس اطباء مصر . واذا تاملنا اسلوب ابن بطلان وجدنا فيه جراة وتطاولا ؛ بل تعاليا وشتائم غير مناسبة خاصة انها صادرة عن طبيب حديث العهد بمصر واهلها وكان من الاولين ان يتجمل بالتواضع والتلاطف . وهكذا نهو يقول : « فالعالم يعرف موضع الشبهة اللازمة والغبي يظن ان جميعها محال ودلسة » و « ان من عجز عن هذه المسألة الحقيرة والحق ناصره فيها فهو عما سواها اشد عجزا لا سيما ان قعدت به القوة الفكرية وسميتها الشعبذة العقلية لانها تجري في خدعة العقول السخيفة مجرى شعبذة الطرقيين لحواس العامة » و « نستميذ من بلد لا يتاتى للعالم ان يكون والجاهل سيان » ثم يصف تلميذ ابن رضوان فيقول « فسألني عن الجواب فاعلمته ان هذه مسألة طبيعية يتعذر فهمها على من لم يرتض بالعلوم المنطقية فلما يلج في العلم الى التبحح بالعمل ... لأن الذكاء كما علمنا صاحب المنطق هو المسارعة الى استخراج الاوساط فانصرف مفحما ، ثم بلغني عنه المسكين تخرص استدللت به على انه لم يعلم ان ارسطو يقول : « اياك والكذب فان الكذاب لا يكذب الا من مهادة نفسه وسخافة رايه وجهالة منه بعواقب مضرة الكذب عليه ... وقال اوميرس : « ليس شيء ادنى من الكذب ولا خير في المرء اذا كان يكذب ... » ثم يتبحح فيقول : « وجمعنا ذلك على جهل النتيجة ثم حللنا الشكوك الطارئة والاعتراضات اللازمة واظهرنا الشبه الداخلة على القدماء في نظائر هذه الاشياء ناخذ في التنزه في رياض العقل والاجتناء لثمار العلم ونعتمد كشف اسرار الطبيعة في البيض ... »

وينهي رسالته هذه بقوله : « وهو (الله) معين عليها يوم يجلس خالقها لاخذ حقوق المرضى من جهال الاطباء بالذي فرط ، ويل يومئذ للمدهشين الذين كانوا عن سلاحهم ساهين وعلى الجهل مقبلين وعن العلم معرضين » يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله « بعلم يقين » .

ولا يدهشنا تصرف ابن بطلان هذا ؛ فلقد كان كثير الترحال والتنقل وكانت له مواقف مماثلة ومن التي وصلت الينا موقفه في حلب حينما قدم اليها من بغداد(٤١) ، وسبق ان سردنا ما قاله القفطي عنها .

بل اننا اذا قرانا كتابه المشهور « دعوة

(٤٠) ج ٢ ص ١٤٠

(٤١) انظر : القفطي . ص : ٣١٥

الاطباء » وجدنا فيها تهجما على زملائه من الاطباء والصيادلة كاتهام الاطباء بالتواطؤ مع الصيادلة لتقاسم ارباح الادوية التي يصفها الطبيب ولا توجد الا عند صيدلي واحد في البلد هو شريكه .

ومما يدل على انه كان يستدرج ابن رضوان ويتحداه انه ارسل رسالته اليه بخطه . هنا كان ولا بد ان يمسك ابن رضوان بقلمه ليرد عليه .

يقول ابن رضوان في مطلع رده : « قرات مقالة الشيخ ، اطال الله بقاءه ، التي انفذها الي بخطه فاذن لي ان اجيب عنها فعرفته اني مشغول عن هذا فالح علي فصرت كارها للجواب ، فان كان يغيظه ويبغضه فلا يلومني ويلوم نفسه ان كان الخطأ والغلط من قبله » .

ثم يبدأ بتنفيذ اقواله بندا بندا ، دون تعالي وتكبر ، ولكن برد الشتائم اليه فلا يتورع عن اتهامه انه « متطبب لا طبيب » و « سماه اهل العلم بالعراق عطلان ليدلوا بفعلان على انه غاية في العدامة ليبالغوا في وصفه بقلة الفهم والمعرفة ... فغلط غلطات كثيرة » و « ان هذا الرجل لا معرفة له ولا فهم له وان كان كلامه كله هذيان يهذر به نقط » و « فما في الارض احمق منه ولا اقل فهما » واورد هنا مقارنة لبعض الافكار التي وردت في الرسالتين :

* * *

رسالة ابن بطلان	رسالة ابن رضوان
١ ــ يتناوب الذكر والانثى في حضانة البيض فيخرج الفرخ ضعيفا يحتاج الى زق بينما تنفرد الانثى بحضانة البيض فيخرج الفروج قويا يلقط .	١ ــ لم تجعل الطبيعة الديك يناوب الدجاجة في الحضان والعلة هي لقلة لبث الدجاجة لطلب الغذاء اذا قامت عن البيض ، بينما يناوب الحمام انثاه في طلب الغذاء .
٢ ــ الديك يقبل التاديب بلطف قرعه	٢ ــ الديك اقل الحيوان قبولا للتاديب فلو ان انسانا اخذ ديكا ورباه في حجرة من صغره الى كبره ثم اطلقه لم يعد اليه وهرب منه . والدجاج لا يعرف الدار البتة . (بينما الحمام وخاصة الزاجل يتادب ويتعرف الدار مهما بعدت) .
٣ ــ الديك معظم في شريعة الفلاسفة ... معبود عند المانوية .	٣ ــ قوله الديك معبود عند المانويه كذب فهم لا يعبدونه بل يحرمون ذبحه تحريما مؤكدا . الديك ليس معظما في الشرائع كما ليس الكبش معظما في شريعتنا التي امرت بتقريبه .. ليت شعري اي الشرائع الذي الديك فيها معظما واذا سلمت على ان الديك معظم والفرخ محرم .. فهل يظن ان ذلك على ان الفروج احر من الفرخ ؟

* * *

في رسالته الثانية التي يرد فيها ابن بطلان على جواب ابن رضوان، والتي كتبها في الفسطاط، نجده : اولا يغير من اسلوبه فبعد ان كان تهجميا متعاليا ساخرا ، نجده لطيفا مستسمحا فيقول : « وتراضيت (في الاجابة) الى هذه الغاية عن انفاذها ابقاء على المودة وقد بلغني بعد ذلك انه قال على سبيل المباهاة : « يسالني الف مسالة واسأله مسالة واحدة » ولو شئت ان افصح واوضح لفعلت ولكن (شعر) :

قومي هم قتلوا اميم اخي
فاذا رميت اصابني سهمي »

ثانيا : يغير الموضوع كلية فيترك البرهنة على ان الفرخ احر من الفروج ليدخل في مواضيع اخرى

يعتبرها ثغرات يستطيع ان ينفذ منها لطعن ابن رضوان .

والواقع انه بهذا تهرب من الميدان الذي اشتهر فيه ابن رضوان وهو الطب ، ليجره الى ميدان آخر هو الفلسفة والمنطق والادب ، وهي ميادين ابن بطلان فيها اقوى . وهكذا يقسم مقالته هذه الى سبعة فصول :

الاول : يدور حول التعليم الطبي . وكما سبق وقلنا ان ابن رضوان درس الطب في الكتب ولم يكن له استاذ واصبح رغم ذلك طبيبا ، لذا فقد دافع عن هذه الطريقة في التعليم في كتابة « الكتاب النافع في تعليم صناعة الطب » وبما ان ابن بطلان درس الطب في بغداد على استاذ مشهور هو ابو الفرج ابن الطبيب ، لذا فقد اعتبر ابن بطلان راي ابن رضوان ثغرة يستطيع ان ينفذ منها فيطعن بحجر واحد بالكتاب وبمؤلفه .

ويؤكد ابن بطلان في هذا الفصل ان المتعلم من افواه الرجال افضل واسهل من المتعلم من الصحف » .

اما الفصلان الثاني (في ان الذي علم من الكتب علما رديئا شكوكه بحسب علمه يعسر حلها) والثالث (في ان اثبات الحق في عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال) فهما مدرجان في سياق الحديث عن افكار الفصل الاول دون تفريق واضح .

وفي الفصل الثاني يكرر ان التلميذ اذا ما تعلم الخطأ ثبت في ذهنه وصعب عليه حله اما اذا كان تعليمه شفويا فالاستاذ يصححه مباشرة . وفكرة الثالث انه يجب على كل محب للعلم « ان لا يقطع بظن فربما خفي الصواب علم الاشياء علما رديئا » .

وفي الفصل الرابع : ينتقد ابن رضوان تجاه السلف من العلماء اذ ان ابن رضوان تهجم على طائفة منهم ، فقد عاب حنين بن اسحق عدم فهم افكار جالينوس وانتقد الرازي .

ويستمر ابن بطلان فيدافع عن نفسه ضد اتهام ابن رضوان له بقلة معارفه الطبية الذي قال عنه : « فهو لا يعرف سوى صنعة (وصفة) واحدة يعالج بها الشيخ والشباب والمدني والقروي والمرض الحار والبارد بالقول المطلق كل مرض » فيذكر عدة وصفات مبنية على فهم تعاليم ابقراط وينتقل الى الاهوية ويكرس لبغداد وصفا دقيقا ، الى ان يقول : « وبحسب هذه المدودة يجب على الشيخ الرجوع عما ثلب به ائمة الصناعة ولا يصر على الفكر بهذه الطائفة بل يستغفر الله مما جنى ويسأله الاقالة ليلقي الحق مبيض الوجه في القيامة ولا يكون سبب النفاق على الائمة بضلال احداث الاطباء لما يؤلب انفسهم من مثالب القدماء فيثنيهم عن قراءة كتب الصناعة فيؤدي ذلك الى هلاك المرضى » .

ثم يسرد بعض القصص التي جرت مع تلاميذ ابن رضوان وكيف وقعوا في اخطاء فاحشة .

والفصل الخامس : قصير ، يتعلق بمسالة البلاد الاهوية وفيها يبدي براعة لفظية منطقية .

وفي الفصل السادس : نجده يرد على ابن بطلان في قوله بان يساله الف سؤال فيسأله سؤالا واحدا . فيقول بانها طريقة « يسلكها الشعراء في الذم والهجاء فبذكرنا لهما يظهر للشيخ انه ضارع عادة السفهاء وغادر طريقة الفلاسفة » . والفصل هذا طويل .

ثم يقول عن ابن رضوان : « ووجدت الشيخ في فصل من آخر المقالة وقد حمى طبعه واحتد غضبه ونشف ريقه ودرت عروقه وصرح بسبي ولوح باسمي ولم يقض حق الصناعة ولا رعى في حرمة الدراعة ونسبني الى الغباء وقطع بانني لم اقرأ شيئا من علوم القدماء ولو انه قرأ العلم » .

ثم يرد باتهامه ابن رضوان ايضا بالجهل فيقول : « ان اشياء كثيرة اخذتها عنه وسمعتها منه لم اكن اعرفها من قبل منها تقديمه الدواء المسهل قبل الفصد وهذا اظنه غلطا قد مات به جماعة ، ومنها وصفه في الحميات الحارة عصير... ومنها اعتقاده ان قول ابقراط العمر قصير والصناعة طويلة يمترضه اثنان وسبعون شكا ، وان اجناس الحميات تنقسم الى ثلاثة عشر الف نوع فهذا مبدأ جهل تبين عاقبته ويظهر لاجله نعمة الله وعقوبته» .

واذا قارنا بين رسالة ابن بطلان الاولى وهذه وجدنا فروقا بينه : فالاولى يبدو على انها كتبت بروح المنتصر (على تلميذ ابن رضوان) المعتد بنفسه ، ولا نجد فيها العناية بالاسلوب ورصف الكلام وتنسيق الافكار الشيء الواضح في الرسالة الثانية من حيث تعمد ، في راينا ، على اظهار ذلك .

وبديهي ان يرد ابن رضوان . وهذا ما فعل

اذ اجابه بمقالة « في ان ما علمه يقين وحكمه ؛ وما ظنه مختار بن الحسن البغدادي غلط وسفسطة » فيصف رسالة ابن بطلان بقوله « وقد لزمت في انتصاري العلم والحكمة فاوردت فيه منافع وفوائد كثيرة من الفلسفة النظرية والعملية ولم ار له مثل ذلك ولا قريبا منه فيما تضمنته الكراسة بل رايت كلاما له رونق وطلاوة ظاهرة وباطنه خلاف ظاهرة كما باطن الدرهم الزائف والدينار المعمول من نحاس مطلي بالذهب عليه من السم الناقع » .

ثم يعرج على الفلاسفة اليونان امثال ارسطو وفرفوريوس ليدعم ما جاء في كتابه عن تعليمه الطب من آراء .

ولكن يبدو من كلامه ضعف بيانه الفلسفي والمنطقي . والرسالة قصيرة ولا تخلو من تهجم انما باسلوب ارق من اسلوب رسالته السابقة فهو يقول : « فظاهر من كلامه انه لا يفهم ولا يفهم انه لا يفهم والسلام » .

وتوجد رسالة اخيرة وجهها ابن رضوان الى « اطباء مصر والقاهرة المعزية حرسها الله تعالى يشكو فيها حاله وما جرى بينه وبين العلامة المختار بن حسن البغدادي الطبيب » وهي اطول من سابقتها وفيها يسرد قصة الخلاف بينه وبين المختار من اولها الى آخرها مركزا على الناحية الطبية وفيهايعود الى اسلوب رسالته الاولى فيكيل التهم والسباب « ... فهو كذاب احمق ... جميع ما فيها شبيه بالشعبذة .. له في نفسه بمنزلة من خونط ووسوس .. » فيناقش فكرة الحرارة والرطوبة وتكوينها في الاجسام ويتهم ابن بطلان انه مزج فيما بينهما عن خطا ، وينتقل الى بعض ما كتبه ابن بطلان في مواضيع اخرى من الحميات فيفند هذه الآراء استنادا الى نظريات ابقراط وجالينوس ويصول ويجول ببراعة في هذه الميادين الطبية المحضة ، ثم يفند آراء ابن بطلان في التدبير وانتقاله من الضد الى الضد دون تدرج .

ولا ريب ان ابن رضوان اراد في هذه الرسالة :

ـ ان يستعدي اطباء مصر على ابن بطلان ، لان هذا ادعى ان اليبرودي ناقش اطباء مصر فاعياهم .

ـ ان يبرهن على مقدرته وبراعته وعلو شانه في العلوم الطبية وتفوقه فيها على ابن بطلان ، كما فعل هذا في رسالته الثانية حينما قلب الى الموضوع الى نقاش فلسفي منطقي .

ـ ان يسم الجو من حول ابن بطلان ليضيق عليه الخناق . وهذا ماحصل اذ اضطر ابن بطلان الى ترك مصر دون رجعة .

هل الفرخ احر من الفروج حقا

لقد تبدو لنا اليوم الفكرة التي دار حولها الخلاف غير مفهومة ، ولكنها في وقتها تتمتع بقيمة ما . والسبب ان الطب العربي تبنى نظرية الاخلاط البقراطية .

ومبدا المعالجة الابقراطي يعتمد على المبدا الطبيعي اي محاكاة الطبيعية في المعالجة . ومعالجة الضد بالضد وبالتدريج .

ومن هنا جاءت اهمية معرفة صفات الاغذية والادوية فيما اذا كانت حارة او رطبة او يابسة او باردة .

فاذا كان لحم الفرخ حار فيجب منعه عن المحموم ، اما اذاكان باردا فبالعكس من المستحسن وصفه له .

ولكن العلم الحديث لم يعد يعترف بنظرية بقراط كلها ، بل يقسم الاغذية بحسب تكوينها الى ثلاثة فئات :

السكريات (او النشويات)

الدهنيات

البروتينات (او الاحيات)

بالاضافة الى الفيتامينات ، والمواد المعدنية الداخلة في تركيب كل نسيج حيواني والتي تختلف مقاديرها باختلاف الانواع .

وكل غرام من هذه المواد يعطي قدرا معينا من الحريرات حين احتراقه في الجسم اثناء عمليات الاستقلاب Metabolism المختلفة ولا علاقة لمصدر المادة .

راي القفطي وابن اصيبعة في الخلاف .

قال القفطي في كتابه تاريخ الحكماء عن ابن رضوان انه « قرأ شيئا من الطب وشيئا من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين ولم يكن حسن المنظر والهيئة » واعتقد ان هذا الكلام كثير من التحامل والمبالغة .

فان من قرأ « شيئا » من الطب لا يستطيع ان يؤلف فيه اكثر من مئة مقالة وكتاب .

كذلك فمن خلال مناقشته لابن بطلان نجد (وخاصة في آخر رسالة الموجهة الى اطباء مصر)

علما صحيحا ، ومعلومات دقيقة ، وفهم عميق للطب الابقراطي وتعاليم السلف .

ان وصف القفطي لابن رضوان فيه الكثير من التحيز ضده . ولا يدهشنا هذا فكتاب القفطي مليء بامثال هذه المواقف . كموقفه من موفق الدين عبداللطيف البغدادي مثلا ...

هذا وقد ذكر القلقشندي في صبح الاعشى(٤٢) ان من صفات رئيس الاطباء ان يكون « جامع علوم هذه الصناعة ، فلا يشذ منها شيء في خاطره ، ولا يغيب منها نقل عن ذكره ... وطابق بين نقله وعلاجه ، وعرف حقيقة كل مركب من الادوية ، ومفرد بعينه وصفته ومزاجه ، وتكررت عليه الوقائع فعرفها دربه واحكمها نقلا » .

ولا بد ان ابن رضوان كان يتمتع بهذه الصفات كلها او اغلبها حتى استلم هذا المنصب .

ونلحظ تناقضا في وصفه للخلاف الذي وقع لابن بطلان في حلب . اذ يفهم من كلامه ان ابن شرارة بسبب غيرته ، لقلة معارفه وخبرته في المناظرات ، حرض نصارى حلب على ابن بطلان ، ولكنه يعود فيقول : « وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عندما تولى امرهم في كنائسهم وتقرير صلواتهم وعباداتهم على اصولهم » .

ولا بد ان ابن بطلان اساء التصرف ازاء الحلبيين ايضا وطبيبهم ابن شرارة حتى وقعت الوفيمة فاضطر الى تركها . الشيء الذي لايدهشنا نظرا الى ما رايناه فيما اسلفنا من حب ابن بطلان للتهجم والتهكم .

اما ابن ابي اصيبعة فهو ، في راينا ، اكثر موضوعية وادق حكما ولعله اصاب كل الاصابة حينما قال : « وكان ابن بطلان اعذب الفاظا واكثر ظرفا واوميز في الادب وما يتعلق به ... وكان ابن رضوان اطب واعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها » .

كذلك اصاب عندما اتهم ابن رضوان بانه «كان كثير الرد على من كان معاصره من الاطبا.... وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته» .

الشيء الذي يناقض تماما ما قاله ابن رضوان عن نفسه في سيرته الذاتية التي اوردها عنه ابن ابي اصيبعة اذ يقول :

« وكنت الزم الصمت واكف اللسان عن معايب الناس واجتهد ان لا انكلم الا بما ينبغي .. واتفقد في خلوتي ما سلف في يومي من افعالي وانفعالاتي فما كان خيرا اوجميلا او نافعا سررت به . وما كان شرا او قبيحا او ضارا اغتممت به ووافقت نفسي بأن لا اعود الى مثله .

او ربما انه اصبح كذلك بعد هذه المشادة الشهيرة مع ابن بطلان .

---

(٤٢) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ ج ١١ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

WWW.ATTAWEEL.COM